أحمد الاسكندرى بك

بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته

١٨٧٥ — ١٩٣٨

بقلم تلميذه وصهره

الأستاذ محمد أحمد برانق

اتصل بى كثير من الأدباء الذين يقدرون المغفور له الأستاذ أحمد الاسكندى قدره ، ويقرون له بالفضل (وبخاصة أدباء لبنان وفلسطين وغيرهما من الأقطار الشقيقة) ، وطلبوا إلى أن أقدم لهم كلمة فى تاريخ حياته ، وموجزاً عن آثاره العلمية والأدبية ، ليكون نواة لما يقال عنه فى حفلة تأبين يقيمها أدباء بيروت ، ولما يلق من محطة الاذاعة فى فلسطين ، ولكن شدة وقع المصيبة كاد يصرفنى عن كل شئ حتى هذا ، إلا أنى غالبت ذلك الضيق الذي أحس مرارته في نفسى ، واستطعت أن أكتب ما أرجو أن يكون فيه بعض الثناء إلى حين ، حتى إذا أمكنتنى الفرصة من وضع يدى على آثاره الأدبية المخطوطة ، جلوتها للأدباء ، وفاء له ، واعترافاً بفضله

نشأته :

صدر العلماء ، وغرة الأدباء ، وباقعة عصره — أحمد بن على عمر الاسكندرى ، ولد فى مدينة الاسكندرية فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٧٥ ، تعهده أبوه بالتعليم ، وبعد أن حفظ القرآن وأجاده التحق بالمعهد الدينى بالأسكندرية المعروف بجامع الشيخ . وأكب على التحصيل ، ولكن مناهج التدريس لم تشبعه ، فكان يقرأ الكتب التى تقع تحت يده ، ومنها قصص عنترة ، وأبى زيد ، وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة ، ونحوها ، فأولع بالأدب ، وقرض الشعر يافعاً ، وعرفه بعض أبناء الأعيان المتأدبين ، ولكن الأفق العلمي فى الاسكندرية أصبح محدوداً أمامه ، فرغب فى النزوح إلى القاهرة حيث الأفق أوسع ، ولكن والده لم يوافقه ؛ إلا أن الهمة البعيدة الموهوبة ، تفك القيود ، وتحطم الأغلال ، وتحتال لتقهر كل صعب ، فصمم الغلام أحمد الاسكندرى على الرحلة إلى القاهرة ، وجمع كتبه وحزمها ، وخرج فى غفلة من أهل الدار ، وليس فى جيبه إلا دريهمات كان قد ادخرها ، وصحبه فى سفره اثنان لا أذكر اسميهما ، أما أحدهما فإنه تخلف فى حدود الاسكندرية ، وأما الآخر فإنه صحب أحمد وركبا مركباً يسير فى ترعة المحمودية حتى وصلا إلى مدينة كفر الزيات . وهنا نفد زادهما ودريهماتهما ، فعاد الرفيق إلى الاسكندرية ، أما هو فان عزمه حديد لا يفل ؛ فقد حمل كتبه على ظهره ، ومشى على قدميه من مدينة كفر الزيات حتى وصل إلى القاهرة وهو حدث .

والتحق بالأزهر ليتلقى علوم اللغة والدين . وفى سنة ١٨٩٤ التحق بمدرسة دار العلوم ، وكان أصغر زملائه سناً ، وأنبههم ذكراً ، وأوسمهم معرفة . وكان من عادة المدرسة حينئذ أن تعقد فى أول كل سنة دراسية اختبارا عاماً لطلبة المدرسة فى كتب تعينها لهم ، ثم فى المعلومات العامة ، فكان الاسكندرى فى كل عام فارس الحلبة الذى لا يدرك ، فتخصه المدرسة بجوائزها

وكان أيام الطلب مبرزاً فى مادة الانشاء بديع الصنعة ، مليح الصيغة . كتب أول أمره على الطريقة الشائعة إذ ذاك ، وهى طريقة السجع ، وله موضوعات كانت موضع إعجاب أساتذة الانشاء فى عصره ، فأطروها ونشروها منسوبة إليه فى كتبهم ؛ ولعل من هؤلاء الشيخ مفتاحاً — إن لم تكن الذاكرة قد

خانتنى — فإنه نشر له موضوعاً فى وصف قنطرة قصر النيل (الخديو إسماعيل الآن) فى كتاب له

تخرج فى دار العلوم سنة ١٨٩٨، واشتغل بالتدريس فى المدارس الأميرية، ثم كان ناظراً لمدرسة المعلمين فى الفيوم والمنصورة؛ وفى هذه الأثناء ظل على نشاطه الفكرى، فأخذ من محاسن الآداب بأوفر حظ

فى دار العلوم

فى سنة ١٩٠٧ انتقل إلى دار العلوم لتدريس مادتى الانشاء والأدب العربى وظل يزاول ذلك العمل بتلك المدرسة زهاء سبعة وعشرين عاماً، ألف فى أثنائها كتاباً عن الأدب العربى فى العصر العباسى، أجمع الأدباء على أنه كان المعين الذى استقى منه جميع من بحثوا فى تاريخ الأدب من بعده. وضع لطلبته مذكرات فى العصور الأخرى، كانت وما تزال عدة الطلبة، يجدون فيها طلبتهم فيستعينون بها على تهيئة أنفسهم لأن يكونوا أدباء باحثين لما تحتويه من الحقائق العلمية والفنية الخالية من الزخرفة والتهويل، ولأنها ترسم لهم طريق البحث فى أحدث صورة

وكان منهج تاريخ الأدب فى دار العلوم يحتوى فوق النظريات العامة تراجم كثيرة لعدد كثير من الكتاب والشعراء والخطباء والعلماء وغيرهم؛ فكانوا يضطرون إلى وضع مختصرات تشبه المتون؛ وهذا لا يلم الطلبة، ولا يربى فيهم ملكة البحث فاقترح — رحمه الله — أن يكتفى بدراسة بضع تراجم بحيث يدرس المترجم دراسة تفصيلية تحليلية وافية، يرى فيها الطلاب نبراساً يهتدون به إذا حاولوا مزاولة البحث أو تصدوا لاستقصاء أى عمل علمى؛ وحمل هو هذا العبء بادئاً ونهض به. وكان من حسن حظى أن كنت من أول من تتلمذوا عليه حين زاول هذا العمل، فاستفدنا منه أجل فائدة، وهو أول من اقترح تدريس فقه اللغة فى مدرسة دار العلوم، وكان غير معروف من قبل فى المدارس المصرية. وتقدم لعمل المنهج، وحمل عبء تدريسه، فقسمه قسمين: قسم فلسفى نظرى يتعلق بنشأة اللغات والاشتقاق والنحت واختلاف اللهجات وغير ذلك؛ وقسم نظرى يتعلق بوضع الألفاظ اللغوية للمسميات، وكان مجدداً فى ذلك، فوفقه الله كل التوفيق، وجاء من بعده فاهتدوا بهديه، وساروا فى نهجه

وفى سنة ١٩٢٢ عرض عليه موظف كبير كان بوزارة المعارف أن يزج بنفسه فى المعترك السياسى، وأن يحرر مقالات ينشرها فى الصحف اليومية، يؤيد بها حزباً معيناً، فأبت عليه نفسه أن يفعل، محتجاً بأن العلماء أحرى بهم ألا يكونوا ساسة، وأن ما يتطلبه العلم من الأخلاق غير ما تتطلبه السياسة

وجميع من تخرجوا فى دار العلوم من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٣٤ تتلمذوا عليه ما عدا فرقتين اثنتين.

فى الجامعة

وفى سنة ١٩٣٣ اختير أستاذاً للأدب العربى بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، فاضطلع بذلك العمل على أكمل وجه وأتمه، فأحبه تلاميذه، وأقبلوا عليه، وأفادوا منه

فى المكتب الفنى

وفى سنة ١٩٣٥ كتب إليه وزير المعارف إذ ذاك خطاباً يخبره فيه أنه يريد أن ينتفع بعلمه الواسع وتجاربه الطويلة فى المكتب الفنى فى وزارة المعارف، فكان فيه عضواً عاملا؛ وكانت له مشاركة تامة فى وضع مناهج اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية، وفى مراجعة الكتب العربية لهذه المدارس

فى المجمع اللغوى

عند ما أنشئ المجمع اللغوى الملكى فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ وقع عليه الاختيار ليكون عضواً من أعضائه. وإن من يراجع محاضر جلسات المجمع فى سنواته الخمس، يجد أنه كان المحور الذى تدور حوله المقترحات والمناقشات، فكان بحق كما وصفه بعض العارفين: «مخ المجمع». ولما تكونت اللجان الفرعية ساهم فى أكثرها، فكان عضواً فى لجنة الرياضيات، ولجنة العلوم الطبيعية والكيميائية، ولجنة علوم الحياة والطب، ولجنة المجلة، ولجنة خزانة الكتب، ولجنة الميزانية، ولجنة الأصول العامة، فكان عضواً فى سبع لجان من إحدى عشرة لجنة

تعصبه للغة العربية

كان يحب اللغة العربية ويتعصب لها تعصباً جعله يصف من يتهاون فى أمر من أمورها بالزندقة والالحاد. وكان يعتبر التساهل وفتح الباب للغات الأجنبية، لغزو اللغة العربية، جريمة شنيعة

ومن يرجع إلى محاضر جلسات السنة الأولى للمجمع اللغوى يجد أنه جاهد جهاداً شـديداً حتى جعل المجمع يوافق على عدم اللجوء إلى التعريب إلا لضرورة قصوى . وكان يعجب من القوم الذين يميلون على المجمع استعمال ألفاظ غريبة لمسميات جديدة ، لأنه كان يرى أن هذه الألفاظ وإن بدت غريبة الآن فإنها بالاستعمال والمران تسهل على السمع وتجرى على اللسان ، وهى أصون للغـة من الدخيل . وله فى مسألة التعريب مواقف مشهودة وقفها فى نادى دار العلوم القديم الذى كان يرأسه المرحوم عاطف بركات باشا ، وفى المجمعين اللغويين الأهليين القديمين اللذين رأسهما المغفور له العلامة الشيخ سليم البشرى ولطفى السيد باشا ؛ ومبدؤه هذا كان يبثه فى تلاميذه ، ويحضهم على الاستمساك به ، حتى لتجد جمهرتهم إن لم يكن كلهم من رأيه ومبدئه

مؤلفاته

أول كتبه كتاب تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى ، ثم ألف كتاباً عن اللهجات العامة ، قدمه لمؤتمر المستشرقين سنة ١٩١١ ، ورأيته عنده مخطوطاً ولم يقع نظرى عليه منذ سنتين. ثم ألف كتاباً للمطالعة للمدارس الثانوية فى عدة أجزاء ، وسماه « نزهة القارئ » طبع منه جزءين نفدت منهما طبعات ، قررته وزارة المعارف سنة ١٩٣٤ ؛ ولكن أموراً شكلية تتعلق بشروط قائمة بينه وبين (مكملان) حالت دون التنفيذ

وألف كتاباً عاماً فى الأدب العربى فى جميع عصوره ، يقع فى بضعة آلاف صفحة ، وكان فى نيته أن يطبعه ، واشتغل فى السنة الأخيرة من حياته بوضع مقدمة له وصفها هو بأنها : تقع من تاريخ الأدب موقع مقدمة ابن خلدون من التاريخ ؛ وأعد المدة لذلك ، ولكن عاجلته المنية ، فاقتطعه دون الأمنية

وله بعد ذلك مؤلفات فى فقه اللغة كان يضمها لتلاميذه ؛ لكنه لم يجعلها كتابا عاما لاعتقاده أن هذا من شئون الخواص . واشترك مع غيره فى وضع كتب مدرسية فى التاريخ العام وتاريخ الأدب والنصوص الأدبية أكثرها يدرس اليوم . وليس المقام هنا مقام البحث فى هذه الكتب ودراستها ، ولكنه مجرد سرد موجز لما عمله .

أخلاقه وصفاته وعلمه :

كان هينا ، ليناً ، سريحاً ، أبيا ، عذب الحديث ، بارع الجد ، حلو الفكاهة ، سريع الخاطر ، حاضر النكتة ، ظريف التفصيل والجملة ، ميالا إلى المزلة ، فكان يقضى فى بيته أياما لا يبرحه . وكان كثير القراءة ، تمر به أيام يقرأ فيها خمس عشرة ساعة أو أكثر فى اليوم . وكان سريع التعليق ، ويقتنى مكتبة عظيمة ، وليس فيها كتاب لم يقرأه ولم يعلق عليه .

وكان أهم ما يعنى به فى قراءته بعـد أن استوعب الكتب القديمة مطبوعة وخطية ـ هو الكتب المترجمة ، وكان أول مايقرأ فى الصحف برقياتها الخارجية

أما معلوماته العامة فواسعة المدى ، فهو سياسى مع الساسة ، وأثرى مع علماء الآثار ، ومصور مع علمـاء التصوير ، واجتماعى مع رجال الاجتماع ، وهو كذلك رياضى وطبيعى وكيميائى ومؤرخ. وكانت له فى كل هذه العلوم مشاركة تامة تدل على استبحاره . والموضوعات التى عالجها فى كتابه نزهة القارىء ، والكلمات التى وضعها فى مجلة المجمع ، ورسالته الأخيرة التى قدمها للمؤتمر الطبى العربى ببغداد ـ كل هذا يشهد بأنه كان ذا نشاط جم ، وعقل جبار.

ومجالسه مع أصدقائه تشهد بما كان له بينهم من جليل القدر وعظيم الأثر. حدثنى أحد الفضلاء أنه شكا إليه يوما تخبط الكتب الانجليزية واضطرابها فى شرح نظرية دارون ، وأنه تعب كثيرا فى التقصى والبحث إلا أنهـا لم تصر جلية فى ذهنه كما يجب ، فأفاض الشيخ فى شرح هـذه النظرية ببيانه المعروف عنه ، وتوضيحه وتذليله وتصويره للحقائق فى أيسر صورها ، حتى ترك صاحبه ومن كانوا معه يقولون : كأن دارون لم يفض بحقيقة نظريته إلا له ، فاختصه الله القدرة على تفهيمنا .

وحدث صديق له قال : صحبته وبعض خلصائه يوماً إلى دار الخيالة ؛ وما كدنا نصل إليها حتى أبدى أحدنا غرابة مما وصل إليه العلم من عرض الصور الصغيرة وتكبيرها ؛ ثم تسجيل الصوت ؛ فما كاد يسمع منه ذلك حتى انطلق يشرح لهم نظريات عن فن التصوير والعدسات وأنواعها وكيفية استعمالها ، ثم عن التقاط الأصوات فى (الأستديوهات) وما يعانيه الممثلون والممثلات . والتفت حوله جمع من الناس وأقبلوا عليه بجامعهم ،

يستمعون منه ، معجبين به، بل ودبعضهم لو أبطل صاحب الخيالة خيالته ليتم له هو حديثه .

من ذلك تعلم أنه تبوأ مكانه بجدارة بين علماء عصره . وكان ركنا عظيما تعتمد عليه وزارة المعارف والمجمع اللغوى والهيئات العلمية والأدبية .

وكان إذا أراد أن يعالج موضوعاً عالجه غيره من المحدثين لا يطلع على ما كتبه ذلك الغير إلا بعد أن يكتب . وكان فى كبره لا يهاجم من يخطئون كما كان يفعل أيام شبابه ، ولكنه كان يرد عليهم فى أثناء بحثه من غير إشارة إليهم ومن غير أن يسمهم من قرب أو من بعد .

وكان موضع الثقة من كثير من العلماء الأعلام ، يراسلونه ويستفتونه فى كثير من المسائل التى يشتبه عليهم الأمر فيها ، أو لا يهتدون إلى مصادرها ، ومن هؤلاء الفضلاء الأب أنسطاس ماري الكرملي ؛ فان رسالاته لم تنقطع عنه حتى فى أيام مرضه الأخير . وكان الأب على جلالة قدره يعترف له بالفضل والأستاذية ، كما كان يعترف غيره . كتب إليه يوماً يقول : « . . . جاءنى كتابك وفيه من سبحات النور ما جعلنى أدعو الله أن يزيدك فضلاً وعلماً للمستجيرين بك واللائذين إلى بحر عرفانك الجم . ولو كان فى الاسلام فى عصرنا هذا عشرة مثلك فى مصر . لانتقل الحنفاء جميعهم إلى هذه الديار المباركة للاقتباس من فيض نورك المتدفق . . . الخ » .

وكان فى جلسات المجمع الأصلية والفرعية إذا أشكل أمر أو أظلمت مسألة خرج هو على الأعضاء بما يزيل اللبس ويكشف الغموض والابهام . وكانوا جميعاً يعترفون له بالسبق ، ويعتبرونه جهبذة تقطع قول كل خطيب . قال الدكتور منصور فهمى بك عضو المجمع اللغوى فى معرض رثائه : « . . . إنا أمس الأول — حين جمعتنى وبعض زملائك حلقة من حلقات المجمع اللغوى — كنا نقول فيما كنا نتذاكر فيه : انتظروا السكندرى ، وأرجئوا المسألة فعند السكندرى علم ما أشكل علينا ، ولديه حل ما استعصى علينا ، والآن يموت حلال المشكلات ، والمرتجى فى اللغة للمستعصيات . . . الخ »

وعند ما سافر سنة ١٩١١ إلى مؤتمر المستشرقين فى بلاد اليونان بصحبة المغفور لهم : الأمير فؤاد (جلالة الملك فؤاد) ، وأمير الشعراء أحمد شوقي بك ، وأحمد زكي باشا ، وحفنى ناصف بك ، وغيرهم ، خطب فى موضوع اللغة العربية الفصحى ، وقلة انتشارها بين الغالبية العظمى من أهل الممالك الاسلامية المختلفة ، وعرض على جماعة المستشرقين استفتاء فى رأى المرحوم يعقوب أرتين باشا وكيل وزارة المعارف إذ ذاك ، فى : « هل يجوز أن تحل فى كل بلد لغة أهله العامية — وهى لغة السواد الأعظم — محل اللغة الفصحى فى الكتابة ، وتستعمل فى المخاطبة ؟ » وذكر لغات هذه البلاد العامية ولهجاتها المختلفة ، وأدب كل لغة فى نثرها ونظمها ، وقرأ ذلك من كتاب له غير مطبوع . . . قال إن يعقوب باشا كلفه بوضعه عن لغات هذه الشعوب الاسلامية العامية ، فقضى فى بحث هذه اللغات واللهجات بضع سنين ، واقتبس منها ما دونه فى كتابه المذكور ، وهى لغات العامة فى بلاد العرب والشام والعراق ومصر وتونس والجزائر ومراكش وغيرها من البلاد التى يتكلم أهلها اللغة العربية بلهجتها العامية الخاصة بها . وقد اهتم المستشرقون بهذا البحث وناقشوه فيه ، وقضوا وقتاً طويلا فى مباحثته ومساجلته ، ثم انتهوا من ذلك إلى قرار صريح بأن : « اللغة العربية الفصحى هى اللغة التى تصلح للبلاد الاسلامية العربية للتخاطب والكتابة والتأليف ؛ وأن من واجب حكومات هذه البلاد أن تعنى بنشرها بين الطبقات الشعبية لتقضى على اللهجات العامية التى لا تصلح كلغة أساسية لأمم تجمعها جامعة الدين والعادات والأخلاق » . وكان هذا القرار فوزاً بالغاً له سر به المجمع ، لأنه كان تعزيزاً لرأيه ضد رأى أرتين باشا ، وهو نصير اللغة العامية ، وإحلالها محل اللغة العربية الفصحى

وفاته

وفى منتصف الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء ١٨ من صفر سنة ١٣٥٧ — ١٩ من إبريل سنة ١٩٣٨ : لحق بالرفيق الأعلى ، على أثر مرض ألزمه الفراش أسبوعين ولم يُجْدِ دواء الطبيب ، فلكل أجل كتاب :

دخل الدنيا أناس قبلنا ورحلوا عنها وخلوها لنا
فنزلناها كما قد نزلوا ونخليها لقوم بعدنا

محمد أحمد برانق